يا أبا الطيّب

(مهداة إلى الشعب اللبناني الحرّ المقاوم والبنّاء)

. سليم مخولي* .

زَخْمُ الحضارةِ والوَريثُ صُقورُ ... ورُؤاكَ: سَيفٌ حارِقٌ وبَخورُ

مُذْ كانَ وَعْدُكَ ـ والقَنا نَبْتُ القَنا ... غابٌ وَجيشٌ زاحِفٌ مَنصورُ

والسّيفُ صِدقٌ في فَصاحةِ بَرْقِه، ... يَمضي شُروراً كي تَزولَ شُرورُ

فوقَ الصّهيلِ عَبَرْتَ دهرَكَ تارِكًا ... رَجْعَ الدَّوِيِّ، لَهُ الحياةُ نُذورُ

نَفْسٌ لها وَجَعُ الزّمانِ كأنّها ... ضاقَت بِه، فَعَلى الزّمانِ تَثورُ

ما كانَ أروعَ ما نَطَقْتَ ـ أرانبٌ ... هذي الملوكُ ـ وجُلُّهمْ كافورُ!

أمَلُ الضّعيفِ منَ الحياةِ يَراعةٌ ... تَخْبو، وحُلمٌ لَفّهُ دَيْجورُ

لا يحقِنُ الدّمعَ الجريحَ مَدامِعٌ ... حتى تَثورَ على الأُمورِ أُمورُ.

هذا زَماني؟ أمْ زَمانُكَ عائدٌ ... فينا إليكَ كأنّهُ مَكرورُ

بِصَليلِ وَقْعِ دُروعِه وسَنابِكٍ ... رَجفَتْ لها تحتَ الصّخورِ صُخورُ

كَفٌّ على قوسِ الفضاءِ تَشُدّه ... والرّوحُ سهمٌ لو نَطَقْتَ تَطيرُ.

ما زالَ شِعرُكَ فيضَ نَهرٍ جاريًا ... في أرضِنا، وبِهِ القلوبُ تفورُ

لو قلتُ نَهرًا، فالمَجازُ حَقيقةٌ ... نَهرٌ تَفَرّدَ ـ والنُّهورُ كثيرُ

نهرٌ تَمَشّى في ضِفافِ حُدودِه ... ريحُ الجنوبِ لها الشّمالُ مُجيرُ

تروي الظّما، قَبلَ الشّرابِ بذكرِه ... أسمى المعاني ـ والمياهُ خُمورُ

يمشي بِمُنعَرَجٍ ويمضي واثقًا ... شكلَ السّؤالِ، يقينُه التّفسيرُ

يرتَدُّ عنهُ كلُّ عيٍّ طامِعٍ ... لا يُسعِفُ التّعليلُ والتّزويرُ.

شَيخَ القَريضِ! جوادَ كُلِّ عَجاجةٍ ... وأبَا البُحورِ ـ وللبُحورِ هَديرُ

آياتُ شِعرِكَ رَفرَفتْ راياتُها ... حَقًّا جَلَتهُ شَهادةٌ فَنُشورُ

---

* ـ طبيب متقاعد من فلسطين ١٩٤٨، له ثمانية دواوين ومسرحية ومجموعة قصص وهو أيضًا فنّان تشكيلي ونحّات

وكـرامـةٌ ـ عـمـرُ الفَـتى ـ يَـمـشي بهـا ... مـا سـارَ فـيـهـا ناصـرٌ ونصـيـرُ
لولا الكرامةُ مـا اغـتَـذَتْ أيّـامُنا ... طَـعـمُ المذلّـةِ شـائِـكٌ ومَـريـرُ
قَـدَمُ الحـريرِ على رُخامِ زَمـانـهـا ... تيهًـا تسـيـرُ ـ وهل أفـادَ حَـريرُ؟

مَـضَـغـوا الكـلامَ بقولِ نـثـرٍ مُـدَّعـينَ ... الشّـعـرَ ، قـالوا «شِـعـرُنا مَنـثـورُ»
هـلْ يَـرتَـضـي ظِـلَّ الأعـالـي قـادِرٌ ... فَـوقَ الثّـرى ـ لكنّـهُ التَّـقْـصـيـرُ!
الشّـعـرُ بَعضُ القلبِ يَخْـفِقُ نابضًـا ... إيقـاعُـه وَهَـجُ الحـروفِ، يُشـيـرُ
كـالـنّـارِ، فِـعـلٌ، في الظّلامِ يُـنـيـرُ ... وعلى الهَـشـيـمِ حَـرائـقٌ وسَـعـيـرُ.

يا خَـيـرَ لفْظٍ عندَ خَـيـرِ مُـتـوَّجٍ ... مِنهُ الرّمـاحُ على الضّـفـافِ جـسـورُ
أبَكَيْتَ خـيـلَكَ! والجِـيـادُ كـريمَةٌ ... لمّا هَوَتْ «واسـتُـشْـهِـدَ» الطُّخْـرورُ[1]
كَـيـفَ البُكاءُ؟ إذا الجُـمـوعُ حَـيـاتُـهـا ... مَـوتٌ مُـبـاحٌ، دَمُّـهـا مَـهـدورُ!

دمعُ الرّجـالِ منـارةٌ ـ يا حُـرقـةً! ... تجـري عَـبـيـرًا إذ يَعـزُّ عَـبـيـرُ
فـرَحٌ هنـا، حُـزنٌ تجـمّـعَ واحـدًا ... والقلبُ في نـارَيْـهِـمـا مَـصـهـورُ
لُبنانُ روحُ الشّـرق، مِـروَحـةُ المُنى ... أو شُـرفـةٌ تحتَ السّـمـا، وسَـريرُ
بِـبَـهـائِـه وصَـفـائِـه وهَوائِـه ... يَصطافُ فـيـه عـاشقٌ وسـمـيـرُ
من عَـسْـجَـدٍ دَرَبُ النّسـيمِ بحَـقـلِه ... وعلى السّـفـوحِ مِظلّـةٌ وعُطورُ
ورقـاءُ! هَلْ في الأيـكِ رِقّـةُ شـاعِـرٍ ... يَنسـابُ منهـا جَـدوَلٌ وخَـريرُ؟

---

١ ـ كان لأبي الطّيب فرسٌ لها مُهر يُسمّى الطُّخرور كان في أنطاكية حين كُبِسَت، فقُتِل الطّخرور وأمُّه عندها قال شعره المشهور

إذا غـامَـرتَ في شَـرفٍ مَـرُومِ ... فـلا تَقْنَعْ بما دونَ النُّجـومِ
فطَعْمُ الموتِ في أمـرٍ حـقـيـرٍ ... كطَعْمِ الموتِ في أمـرٍ عظيمِ
سَـتبكي شَـجـوَها فَـرَسـي ومُـهـري ... صَـفـائحُ دَمْـعُـهـا مـاءُ الجُـسـومِ

أو هَـدأةٌ في فَـيْـأةٍ يَغـفـو بِهـا ... تَـعَبُ الوُجـودِ وسِـحْـرُهُ المأسـورُ

يـا أرضُ! كُـونـي فِكـرةً وتَجـدّدي ... مـثلَ الحَـقـيـقـةِ، مـا خَـفى مَـسـتـورُ

كـيـفَ اكـتَـنَـزْتِ سـنابلاً وعـنـادلاً ... وعلى التُلـولِ مُـشـرَّدٌ عُـصـفـورُ

مِن غـيـرِ إذني، مِن دُمـوعي، مِن دَمي ... غَنّى، فـأشـجى في الغِنا شُـحـرورُ.

يـا أرزَ لـبـنـانَ المُـطـلَّ عـلـى الـورَى ... أنتَ الشّـمـوخُ على العُـصـورِ كـبـيـرُ

صِنّـيـنُ يَـعـلـو خَـيـمَـةً دَهـريَّةً ... مِـن عِـزّةٍ أطـنـابُـهـا وجُـذورُ

مـا هَـزّهُ رَعـدٌ وَسُـخـطُ صَـواعِقٍ ... حَـشْـدُ الكَبـائِرِ دونَـهُ تَـصـغـيـرُ

مُـتَـعَـمِّمٌ بِبَـيـاضِـهِ وجَـلالِـهِ ... مُـتَـجلبِبٌ خُـضـرَ السّنينِ فَـخـورُ

يَعلـو، صَـدوقَ الوعـدِ في غـاياتِهِ، ... مـا طـالَـهُ التّـهـويلُ والتّكفـيـرُ.

لا وَقـتَ عِـنـدَكَ لـلـتَّـسـاؤُلِ مَـن ... تكونُ إذا اسـتَـعَـلْتَ وأُنـزِلَ المقـدورُ؟

لا وَقـتَ لـلـفـكرِ المُـهـدَّدِ بالـثّـوانـي ... حـائـرًا ـ وحُـدودُه التَّـدمـيـرُ

للرّيحِ أرصِـفَـةُ الجـهـاتِ، رِمـالُـهـا ... صَـحـراءُ جَـفَّتْ، ماؤُها تَقـتـيـرُ

هَلاّ انتَـصَـرْتَ لِـخُطوَةٍ ـ فـيـهـا ... البـدايـةُ والنّهـايـةُ ـ والأمـانُ يَسـيـرُ؟

أسَـعـادةُ الوقْـتِـيِّ مِن فَـرحِ الوجـودِ ... إذا هَـمَـمْـتَ تَـرَقُّبٌ وحُـضـورُ!؟

أيّـامُنا ـ مَـرَضُ السّنينِ ـ كـأنّـمـا ... تَغـتـالُنا، يا صَـيـفُ مِنكَ شُـهـورُ

مـوقـوتـةٌ سـاعـاتُنا ـ ورتـابَـةٌ ... دارَتْ بـهـا أوقـاتُـنـا وتـدورُ.

أهلاً، حَـمْـدانَ، أينَ سُـيـوفُـكـمْ ... أوْرَثْـتُـمـوهـا!؟ والوَريثُ طَـريـرُ؟[٢]

أسـيـافُكمْ تُـحَفُ الزّخـارفِ زَيَّنتْ ... جُـدرانَكمْ، لـكـنّـهـا قـصـديـرُ!

---

١ ـ الطَّرير ذو الرُّواء والمَنظَر، والذي نبت له شارب. قال العباس بن مرداس

ويُعْـجِـبُكَ الطَّريرُ فَـتَـبـتَليـهِ ... فَـيُـخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ

أســـــيـــــافُكم رَقْصٌ يلـوحُ تَـيَـمُّـنًـا ... والزَّنـدُ تلـوي، عَظـمُـــهـــا مَكســـورُ

دُخْنا على ذِكـــرِ الصّـــمـــودِ تَعلّةً ... فـمـتى سـيَـشـفى قلبُـهُ المصدورُ؟

لا الأرضُ تُطلِعُ عُـشـبَـهـا كَـرَمًـا، ولا ... فـيـهـا القُـصـورُ الشّـامـخاتُ قـصـورُ

من أيـنَ تـأتـيـنـا الـسّـــلامـةُ يـا تُـرى ... والسّلمُ حَـــربٌ في السّـــلامِ تُـغـيـرُ!

ولَنا الشّـــهـــيـدُ وألفُ ألفِ شـهـيـدةٍ ... مِـلءَ الـدّمـارِ وكـلّـهُـمْ مَـــغـــدورُ

الموتُ يَـعْـــمـلُ، والنّـفـــوسُ رَهـائِـنٌ، ... والأرضُ تشكو زَحْـــمـةً، وقـبـــورُ

مـــا نـامَ طِـفـلٌ فـي سَـــريرِ أمـانـهِ ... حـــتـى تـنَـبّـــهَ حُـلْـمُـــهُ المذعـورُ

نظَرَ السّـــمـــاءَ ـ سـوادَها ودُخـانَـهـا ـ ... دُنـيـــاهُ تُـشـــوى حَـــولَـهُ وتَـمـورُ

نادى، فَـــأعلى في صـــراخِ دُمـوعِـــهِ ... والصّـمتُ صـمتٌ لو أجـابَ شَـخـيـرُ

عـامٌ فَـــعـامٌ بعـــدَ عـــامٍ بَعـــدَهُ ... يأتي ويَـمـضي، والمصـيـرُ مـصـيـرُ

فَـإلى مـتى؟ صـاحَ الفَـتى ـ في مَن عَـتـا ... الضّـادُ ، ضِـدٌّ، ضَـيـغَـمٌ، وضَـمـيـرُ

شَقَّ الـهـواءَ بِقَـبـضَـةٍ مَـحـروقَـةٍ ... ومَـضى يَسـيـرُ على هَـواهُ يَسـيـرُ

لِـمَـشـيـئَـتي أنـا ذاهِبٌ، ولِطينَتي، ... قـالَ الفَـتى ـ والأمـرُ مِنهُ خَطيـرُ.

يا سَـــيّـدًا مَـــلأ الزّمـــانَ، وعَـــصْـــرَه ... يَجـري بِنا، كَـيـفَ العُـصـورُ تَزورُ؟

مُـذ كـانَ عَـهـدُكَ ـ والفَـضـا عَـرشُ ... النّسـورِ إذا تَجَلّتْ في الفَـضـاءِ طُيورُ

غَنّيتُ لاسـمِكَ في ظَلامِ مَـفـازَةٍ ... صَـوتُ المُغَنّي في الظّلامِ بَشـيـرُ.

كفرياسيف (آب ٢٠٠٦)